الهوى . والذين يريدون العقل تحرراً من الفكر نقول لهم : أنتم لا تفهمون معنى كلمة العقل . فقد جاءت كلمة العقل لتمنع الهوى لا ليجترىء الإنسان بهواه على رأيه وسلوكه المستقيم ، والعقل هو الذى يمنع الفكر من أن يكون مبرراً للهوى .

فلو كانوا يعقلون لقلنا لهم : إن الأعمال التى تنادون بها عمر نفعها مظنون وقد تنفعكم فى دنياكم ، وعمر الدنيا لا يستطيع أحد أن يحدده بالنسبة لنفسه ، فدنيا الفرد قد لا تزيد على مائة سنة . ودنيا الإنسان هو عمره فيها . وقد ستر الله سبب الموت وكيفيته عن الخلق حتى يعرف الإنسان أن عمره مظنون وقد ينتهى قبل أن تطرف عينه . ولو كانوا يعقلون لما باعوا آخرتهم بدنياهم . ولو عقلوا لأداروا مسألة البدائل فى رءوسهم ولعلموا أنهم بموقفهم هذا من قضية الإيمان والإسلام إنما يقفون موقفاً خاسراً ليس فى مصلحتهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

و« قُلْ » هى خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وحين يخاطب الحق الرسول ، فالخطاب أيضاً لأمته صلى الله عليه وسلم ، فنقول نحن أيضاً :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة المائدة)

و« نَقَم يَنْقِم » أى كره منى أن أفعل هذا ، فلماذا تكرهون إيماننا يا أهل الكتاب ؟ هل الإيمان مما يكره ؟ وجاء الحق هنا بسؤال لا يقدرون على الإجابة عنه ، فنحن آمنا بالله وبرسله وما أنزله علينا وما أنزل من قبل ، فما الذى يُكره فى هذا ؟ وأبلغ سيدنا

محمد صلى الله عليه وسلم اليهود أننا نؤمن بالله وبالرسل ومنهم سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ، فغضبوا منه كثيراً . فكيف يكره أهل الكتاب إيمان المسلمين بالله ؟

مثال ذلك عندما يدعوك إنسان إلى تصرف غير مستقيم أو إلى الذهاب إلى مكان مشبوه فترفض ذلك فيكرهك هذا الإنسان ، فتقول له : أتكره فى سلوكى أن أكون مستقيماً ؟ ونحن نعلم أن الإنسان الأمين هو ثروة لمن يعرفه والذى يستحق النقمة والكراهية هو الفعل الضار ، أما الإيمان بالله فهو أمر محبوب لأنه يُعلم الإنسان الأدب مع كل خلق الله ، ويعلم الإنسان الحفاظ على أعراض الناس ، ويعلم الإنسان ألا يعتدى على أموال ودماء الناس ولا يغتاب الناس ، ولا يرتشى ، وأن يخلص فى العمل وألا يكذب فى ميعاد ، فأى شىء فى هذا يستحق الكراهية ؟

إذن ، فمن يكره إنساناً لأى سبب من هذا فهو كره بلا منطق ، وكان من الواجب أن يكون سبب الكره سبباً للمحبة . وقد يأتى من يقول لك : ليس فى فلان من عيوب إلا كذا .

وقد يورد سبباً معقولاً . ولكن لا يقول أحد أبداً : لا عيب فى فلان إلا أنه شهم ؛ لأن الشهامة لا يمكن أن تكون عيباً ، كأن القائل قد أعمل ذهنه حتى يكتشف عيباً ، لم يجد إلا صفة رائعة ، وقال عنها : إن كنت تعتبر هذه الصفة عيباً فهذا هو عيبه . ويسمون ذلك من أساليب الأداء الأدبى عند العرب وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم ، فيقول قائل : لا عيب فى فلان إلا كذا . وساعة يسمع السامع هذا يظن أن العيب الذى سيورده هو صفة قبيحة فيفاجأ بأنها خصلة جميلة . وبذلك يؤكد القائل المدح بما يشبه الذم : « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون » .

أنتم تقولون : إنكم أهل كتاب وعندكم التوراة ، وكان يجب أن تعلموا كيف يهذب الإيمان النفوس ويدفع عنها الشر ؛ لأن لكم سابقة فى الإيمان ، فقد آمنتم بالله وبالرسل السابقين على موسى وآمنتم بموسى ، والمسلمون آمنوا بالله وآمنوا بما أنزل إليهم وآمنوا بالرسل ومنهم موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم فكيف يُكره ذلك ؟

وإن كان هذا مما يُكره فعلينا كمؤمنين أن نسألكم : لماذا تنكرون علينا ذلك ؟ لاشك أنكم تنكرون علينا إيماننا بالله لأنها قضية غير واضحة فى أذهانكم . ولو كانت واضحة فى أذهانكم ما كرهتم إيماننا . إذن فمسألة الإيمان بالله غير مستقرة فى وجدانكم كأهل كتاب بدليل أنكم تكرهون من آمن بالله ، ودليل ذلك أنكم أنزلتم الله منزلة لا تليق بكماله ، فجسمتموه وقلتم :

﴿ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة البقرة)

وقلتم :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾

(من الآية ١٨١ سورة آل عمران)

وقلتم :

﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المائدة)

إذن فأنتم تكرهون لنا أن نؤمن بالله إيماناً يليق بكمال الله ، لأنكم لم تؤمنوا بالله صحيح الإيمان ، ولو طابق إيماننا إيمانكم ما كرهتمونا . وكذلك لم تؤمنوا بالكتب بدليل أنكم حرفتموها . ولم تؤمنوا بالرسل لأنكم وقفتم من عيسى عليه السلام هذه المواقف . إذن فأنتم تنقمون منا وتكرهون أموراً لا تُكره عند الطبع السليم ، وهذا دليل على أن طبعكم هو المختل . وإذا كنتم تكرهون هذا الإيمان فماذا تملكون لمن تكرهون ؟ لا قوة لكم لتفعلوا لنا أى شىء . ولكن حين يكرهكم الله فماذا يفعل بكم ؟ إنكم حين تكرهوننا لا تملكون قدرة لعقابنا ، لكن الذى يكرهكم هو الله وعنده القدرة المقتدرة لينتقم لنا منكم .

إذن فكراهيتكم لنا لا قيمة لها . وإذا كنا نجاريكم ، والمجاراة لون من جدال الخصوم فماذا يعنيكم من كوننا مؤمنين ؟

مثال ذلك أن يتهمك إنسان بأنك بخيل فتقول له : هب أننى بخيل فعلاً فماذا يعنيك من هذا ؟ وهذا ما نسميه مجاراة الخصوم ؛ لذلك نقول لأهل الكتاب : هب أن لكراهيتكم لنا رصيداً وأنكم تستطيعون إيذاءنا ، فلكم شر من هذا وهو عقاب

الله ، وسنرى ماذا سيحدث لكم عندما يكرهكم الله . وهو قادر على كل شيء . وعلى فرض أن إيذاءكم لنا هو شر ، فالأكثر فاعلية هو عقاب الحق لكم ؛ لأنه عندما يكرهكم يقدر أن يعاقبكم بما شاء . إذن فالصفقة - صفقة كراهيتكم لنا - خاسرة من ناحيتكم .

ولذلك قال الحق :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

فإن سلمنا جدلاً أنكم يا أهل الكتاب تعتبرون كيدكم لنا سيصيبنا بشر . على الرغم من أنكم لا تملكون أن تجاوزونا بشيء . وها هوذا الحق يخبركم على لسان رسوله بالأكثر شراً من هذا ، وهي العقوبة التي يصنعها الله لكم وهو قادر على إنزالها بكم وهي الأكثر ضرراً . وهذا لون - كما قلنا - من مجاراة الخصم . ويعلمنا الله ذلك على لسان رسوله فيقول لخصومه :

﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

والرسول على الهدى بالقطع وخصومه على ضلال بالقطع ، ولكن رسول الله يسلم الأمر طالباً من خصومه أن يراجعوا أنفسهم ليناقشوا القيم التي يدعو إليها الإسلام . وسيجدون أن قيم الإسلام هي الهدى وأنهم على ضلال . ونعلم أن الهدى والضلال لا يجتمعان ، فنحن كمسلمين على هدى ، وأنتم على ضلال . ووسيلة التمييز أن يحكم الإنسان عقله في المسألة ، وبذلك يرى مَن الذي على هدى ومَن الذي على ضلال . فأنت لا تناقش الخصم في أصل الدعوى ، ولكن سلم

للخصم جدلاً . والتميز النهائى هو الفيصل . وسيجد المميز حيثية ضلال الخصم واضحة وضوح حيثية هدى المسلمين .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فإن كنتم تعيبون علينا أو تكرهوننا أو تأخذون إيماننا سُبَّة فهذا أمر لا يُكره الإنسانُ من أجله ، لأنكم تدعون أنكم مؤمنون بالله . وكذلك لا يمكن أن يُسب الإنسان من أجل الإيمان بما أنزله الله فى كتاب ، لأنكم أيضاً تقولون إنكم مؤمنون بالتوراة . وتقولون إنكم مؤمنون بالأنبياء السابقين على موسى . والخلاف أن عيسى عليه السلام جاء بعد نبيكم فكفرتم به ، لكننا آمنا به فنحن منطقيون مع أنفسنا ومع ربنا .

والحق يبلغنا : « وأن أكثركم فاسقون » . ونعرف أن صيانة الاحتمال تقتضى ألا يحكم الحق عليهم جميعاً بأنهم فاسقون ، لأن فيهم بعضاً من الناس تراودهم نفوسهم بالإيمان بالله وبالإسلام ؛ لذلك لم يكن الحق أبداً ليعمم الحكم على كل أهل الكتاب بالفسق ؛ ليعطى الفرصة لمن يفكر أن يعلن إيمانه .

ومن بعد ذلك يأتى الخبر على لسان الرسول بعقابهم : « قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله » إذن فهناك أمر أكثر ضرراً لكم لأنه ما كان يصح أن تكرهوا إيماننا ، والأكثر ضرراً من هذا هو لعنة الله « من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير » ويأتى سبحانه بالأوصاف التى فيهم ، من لعنة الله لهم وغضبه عليهم وجَعْلِه بعضًا منهم قردة وخنازير . وكيف يأتى الله بمثل هذه الأوصاف كمثوبة ؟ إن هذا لون من فتح باب الرجاء والأمل ثم يصدمهم من بعد ذلك تماماً مثل قوله تعالى :

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

والعذاب الأليم يُنذر به ، وكذلك اللعنة لا يمكن أن تكون ثواباً ، لكن الأسلوب القرآنى يعطى النفس المخالفة لوناً من الانبساط ، ثم يعطيها اللون المناقض له من الانقباض ، ليكون ذلك أبلغ فى الانقباض وأكثر إيلامًا .

ومثال ذلك - كما قلنا من قبل - المسجون الذى يطلب كوب ماء فيأتى له الحارس بكوب الماء ويقربه من فمه ثم يسكب كوب الماء على الأرض ، هذه العملية زرعت فى نفس السجين الأمل فى الارتواء أولا ، ثم يكون سكب الماء على الأرض سبباً فى التعذيب والإمعان فيه ، لكن لو رفض الحارس أولاً تقديم الماء لعاش السجين فى اليأس وهو إحدى الراحتين .

ونرى ذلك أيضا فيمن ينتظر حكماً قد يكون إعداماً وقد يكون براءة ، وتكون فترة الانتظار هى المليئة بالقلق . وعندما يضعون المنتظر فى الميزان يجدون وزنه فى انخفاض . وبعد الحكم بإعدامه يبدأ وزنه فى الزيادة ؛ لأن اليأس إحدى الراحتين . إذن فانبساط النفس ومجىء القبض بعدها هو الأمر الأنكى والأشد قسوة على النفس ، ولذلك يقول الحق :

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

هذه البشارة تأتى بالانبساط للنفس ويتلوها الانقباض ، ومثل قول الحق :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

أى أنه قد وقع عليهم لون من العذاب يستدعى الإغاثة ، ومن بعد ذلك يغاثوا لا بما ينقذهم ولكن بما يزيد عذابهم .

وساعة يسمعون « يغاثوا » تنفرج أساريرهم وتسكن وتطمئن نفوسهم ، وبعد ذلك يحدث الانقباض بسماعهم : « بماء كالمهل يشوى الوجوه » ، إذن فكلمة « مشوية » تأتى لهم بشىء من الانبساط يتلوه العذاب .

هذا وإنّ أفعل التفضيل يأتى على صورة « أفعل » ، « أكرم » ، « أجود » ، « أشجع » فهذا لون من زيادة الصفة فى طرف عنها فى الطرف الآخر . اللهم إلا كلمات قليلة جاءت فى اللغة على غير صيغة التفضيل منها كلمة « خير » وكلمة « شر » فلم تأت منها كلمة « أخْيَر » بمعنى أكثر خيراً . ولا كلمة أشر بمعنى أكثر شرا ، ومرة تأتى كلمة « خير » ويقابلها الخير الأقل . والذى يميز المعنى هو وجود كلمة

« من » كقولنا : « فلان خير من فلان » . أما إن قيل : فلان خير » فمقابله هو « شر » لأنه لا توجد كلمة « أخير » .

وهكذا نجد كلمة « خير » تأتى للوصف مرة وتأتى للمبالغة فى الوصف مرة أخرى ، والفاصل للتمييز بين الاثنين هو وجود « من » . فيقال : فلان خير من فلان . ومثلها فى ذلك كلمة شر.وقد ورد استعمال كلمة خير للتفضيل ولغير التفضيل فى قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ ﴾

(سورة الأنفال)

والحديث النبوى يقول : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كلّ خير »[1] .

إن فى كل مؤمن خيراً . ولكن فى المؤمن القوى خير أكثر مما فى المؤمن الضعيف . والمثال على أن كلمة « خير » . تقابل كلمة « شر » ، هو قول الحق :

﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ ﴾

(من الآية ١٨٠ سورة آل عمران)

و« خير » هنا ليست أفعل التفضيل ولكنها للوصف العادى ؛ وإذا جاءت « من » تعرف أنها للتفضيل ، وعدم الإتيان بلفظة « من » يدلنا على أنها للوصف العادى ومقابله كلمة « شر » . وهنا يقول الحق : « قل هل أنبئكم بشر من ذلك » . وجاءت كلمة « بشر » هنا للتفضيل ولا يعنى ذلك أن المؤمنين فى « شر » ولكنها مجاراة للخصم . واعتبار أن ما يقوله الخصم مقبول جدلاً . وهناك الأكثر شراً فى الواقع وعند الله وهو المراد من قوله تعالى :

﴿ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (من الآية ٦٠ سورة المائدة)

(١) رواه أحمد ٢/ ٣٧٠ ومسلم فى القدر والبيهقى فى السنن الكبرى ، وابن ماجه فى الزهد ومالك فى الموطأ (التمهيد لابن عبدالبر ٩/ ٢٨٧) .

لماذا إذن يكون مصير هؤلاء إلى شر ؟ لأنهم كرهوا سلوك المؤمنين ولم يستطيعوا أن ينفسوا عن الغِل الذى فى صدورهم بعقوبة المؤمنين . ولكن الله يكرههم ويملك لهم العقوبة ويكون مصيرهم هو المصير الذى يوضحه الحق فى قوله : « لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير » واللعنة هى الطرد من الرحمة . والطرد من الرحمة يعنى حرمانهم من الخير .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - عندما يكون هناك خادم فى خدمة إنسان ما وهو يسكن ويأكل ويلبس على حساب السيد ، فإذا لم يؤد هذا الخادم حقوق الخدمة على وجهها المطلوب ، لا يرضى عنه سيده ، ويطرده من الخدمة ، وحين يطرد الإنسان خادمه فهو يُعْلن للناس أن هذا الخادم لم يؤد حق الخدمة ، فلا يستخدمه أحد بعد ذلك . وهذا هو الغضب . وبهذا نعرف الفرق بين أن يُطرد من الرحمة فقط ولا يعقب ذلك شيء ، أو أن يستمر الغضب بالإعلان عن السبب فى الإخراج من الرحمة ، فهذا معناه أن الله بعد أن طردهم يلاحقهم بغضبه وسخطه وأن لعنه لهم لا ينفك عنهم .

والله سبحانه وتعالى يعلن لأهل الكتاب : إن طردى لكم من رحمتى وتواصل غضبى عليكم هو شر عظيم . وغضب الله - كما نعلم - يترتب عليه أشياء فى كل حركة من حركات حياتهم ، إنه يمنع الهُدى أن ينفذ إلى قلوبهم ، بأن يختم على قلوبهم فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر . أو أن يجعل منهم القردة والخنازير . وإن تساءلنا : كيف يكون نسلهم ؟ نعرف أن الذى يُمسخ لا يتناسل ، إنه يُمسخ إلى أن يُرى مسخاً ثم يؤخذ إلى الموت .

وهل هم الذين اعتدوا فى السبت أو الذين عبدوا العجل أو الذين كفروا بعد نزول مائدة عيسى ؟ إنهم كل هؤلاء . أو أنهم قردة ، أى فى خصال القردة ، كالطيش وخفة الحركة وانكشاف العورة ، أو طباعهم وخصالهم كالخنازير ، فهؤلاء لهم خبث ونتن وزخم كزخم الخنزير . وأهم ميزة فى الخنزير أنه لا يغار على أنثاه . وهذه موجودة فيهم . وتفشت فيهم عادة تشغيل بناتهم فى الدعارة وغير ذلك من أعمال الباطل .

وهكذا نفهم قوله الحق : « وجعل منهم القردة والخنازير » إما على أساس أنه المسخ الحقيقى . والمسخ الحقيقى لا يظل متناسلاً ممسوكاً وإنما يكون المسخ لزمن محدود يراه الناس ممسوخاً ثم يموت وينتهى ، وإما أن نفهمها على أن سلوكهم كسلوك القردة والخنازير .

ويتابع الحق : « وعبد الطاغوت » والعبادة إنما هى طاعة العابد للمعبود فيما أمر به وفيما نهى عنه . والطواغيت هم الذين يزينون لهم الشر والنفاق وأكل السحت والإثم . ويكون مصيرهم هو قوله الحق : « أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل » وهذا هو الواقع الذى يعيشون فيه وهو شر كله ، وهم لا يفكرون فى السير فى الطريق السليم .

وعندما نقرأ قول الحق كاملاً فى هذه الآية :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

نعرف أنهم فى حالة غفلة عن مسار الهدى الموصل للحق ؛ لأن « سواء السبيل » هو الأمر المستوى الموصل للغاية . وكانت طرق العرب إما فيها رمال وإما بين الجبال ، وكانوا يختارون السير فى وسط الطريق حتى لا ينالهم أذى من جرف هاوٍ من الرمال فيقع بهم أو أن تقع عليهم صخرة من جبل .

ولذلك قال الحق :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى أنه فى وسط الجحيم . ويقول الحق بعد ذلك عن الذين غضب عليهم :

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

وهؤلاء هم الذين اتخذوا الدين هزواً ولعباً وسخرية . وهم ساعة يدخلون على المؤمنين يدخلون ومعهم الكفر . وعندما جلسوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا أيضاً بالكفر . أى أنّ الكفر قد لازمهم داخلين وخارجين . وكأن جلوسهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزدهم أى شىء . وكان من الممكن أن يدخل إنسان على مجلسه صلى الله عليه وسلم ، وهو كافر ، وبعد ذلك تمسّه عناية الهداية فيخرج مؤمناً .

ومثال ذلك : فضالة بن عمير الليثى الذى جاء ليقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عام الفتح . وعندما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضالة قال له : ما كنت تحدث به نفسك ؟ فقال : لا شىء ، كنت أذكر الله عز وجل . فضحك النبى صلى الله عليه وسلم وقال : أستغفر الله لك . ووضع يده عليه السلام على صدر فضالة . فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما أجد على ظهر الأرض أحب إلى منه [1] .

لقد مسته العناية ، فقد دخل ـ أولاً ـ بكفره وخرج ـ ثانياً ـ بعميق الإيمان . لكن هؤلاء دخلوا بالكفر وخرجوا بالكفر ، كأن الدخول كان نفاقاً ، بدليل قوله الحق : « والله أعلم بما كانوا يكتمون » وهذا القول دليل نفاقهم ، فقد أعلنوا الإيمان لكنهم دخلوا بالكفر وخرجوا بالكفر . وكانوا يكتمون أن الدخول إلى رسول الله هو محض نفاق . وهذه خاصية لمن قالوا آمنا ، ولكن كان دخولهم إلى الإسلام نفاقاً ، لأن كفرهم أمر مستقر فى قلوبهم لا يتزحزح ، وكان يكفى فى الأسلوب أن يقول الحق :

(١) رواه ابن عبدالبر فى الدرر وابن حجر فى الإصابة .

وقد دخلوا بالكفر وخرجوا به ، ولكنه قال : « وهم » وذلك تحديداً لهويتهم الكافرة ، فكأن عملية الدخول بالكفر والخروج بالكفر هى عملية مسبقة ، لذلك يكشفهم الحق : « والله أعلم بما كانوا يكتمون » .

وجاء سبحانه بأفعل التفضيل « أعلم » فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم من إشراقات الله عليه وتنويره له كان يعلم أيضاً أنهم منافقون . ولكن علم رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصل إلى علم الحق سبحانه وتعالى فعلم الله ذاتى وعلم رسوله فيض منه - سبحانه - .

إذن فقوله الحق : « والله أعلم » لم يمنع أن هناك أناساً قد علموا أنهم منافقون . وقد استقر فى ذهن النبى أنهم منافقون وأن الله أعلم بما كانوا يكتمون . والكتم هو حبس الإحساس النفسى أن يخرج وأن يظهر واضحاً ، ومحاولة الكتم عملية غير طبيعية لأنها قسرية . ويكاد كفرهم أن يظهر ويخرج فيحاولون أن يكتموه لأنهم يحرصون ألا ينكشفوا ، ولكن علم الله لا تخفى عليه خافية .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

والمسارعة فى الإثم تعنى أنهم من بداية الأمر فى الإثم ، ويسارعون فيه ، أى أنهم كانوا على أولية الإثم ويجرون إلى آخرية الإثم ، فضلالهم واضح من البداية ، وكأن خلقهم الكفر يفضحهم ، برغم محاولتهم كتمان ذلك . ويجدون أنفسهم مسارعين إلى فعل الإثم ، أى أن عملهم ينزع إلى الكفر ، ويجعلهم الحق يغفلون عن الكتمان ، فتبدو منهم أشياء هى أكثر فضيحة من القول ، ذلك أن الإثم مراحل : مرحلة قول ، ومرحلة فعل . والفعل أكثر فضحاً من القول .

« وترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم والعدوان » ويقول الحق : « كثيراً منهم »